

في حولياته يكتب (آشور دان) وكأنه يخاطب القارئ الحديث عندما يسجل أنشطته وأعماله العسكرية الخاصة، فهو ينظر إلى الماضي إلى الاضطرابات التي مرت بآشور خلال القرن السابق الذي لا نملك عنه سوى قليل من المعلومات، ويخبرنا أنه كانت إحدى الشعوب المغلوبة على أمرها تقترف أعمالاً تخريبية وجرائم قتل منذ زمن شلمنصر الثاني (١٠٣٠ - ١٠١٩ ق.م).

وقد قام الآراميون الذين بدأ بتدمير وإحراق مدنهم بالاستيلاء على الأراضي الآشورية في زمن آشور رابي الثاني (١٠١٢ - ٩٧٢) وهو يتكلم عن أهالي آشور الكادحين الذين غادروا مدنهم وبيوتهم بسبب الفقر والحاجة والجوع والمجاعات وغادروها إلى بلاد أخرى، وهو يؤكد لنا أنه قد أرجع هؤلاء إلى مدنهم وبيوتهم وأعاد استقرارهم فأصبحوا يعيشون بسلام.

تشير التعليقات التي أكدها آشور دان أنه وخلال القرن السابق لعام ٩٣٤ كانت الإدارة المركزية في دولة آشور قد أصابها الانهيار التام مع حدوث انهيار اقتصادي، ونتيجة لذلك فإن أنشطة آشور دان الاقتصادية قد اتجهت إلى تطوير الاقتصاد بشكل لا يقل عن تطوير الأنشطة العسكرية والأمن العسكري، ولم يتم بأي محاولة ليناكس المآثر العسكرية التي قام بها تغلات بلاسر، ولكنه اكتفى بتأسيس سيطرة سليمة لآشور داخل حدودها الطبيعية ابتداء من الجانب الأقرب من (طور عابدين) حتى الهضاب الواقعة فيما وراء أربيل، وأما سياسته بالنسبة إلى إعادة إسكان الشعوب في آشور فقد تطرقنا إليها في الفقرة السابقة، ولكي يعالج الانهيار الذي ذكر سابقاً في الإدارة المركزية أنشأ بعض الوظائف الحكومية في المقاطعات، ولدعم الاقتصاد بشكل مباشر تبارى مع منجزات

تغلّات بلاسر الأول في تأمين المحارّث في جميع أنحاء البلاد، وذلك لزيادة إنتاج القمح في كل مكان بكميات أكبر من السابقة، ولقد ساعدت كل هذه الأمور على تأمين قاعدة متينة لتطوير وتوسع أفضل بشرط أن يستطيع الحكام الذين تلوه الاستفادة من هذه الإصلاحات.

ولقد ثبت أنهم استفادوا فقد خلف آشور دان أربعة ملوك أكفاء من أسرته المباشرة، وخلال قرن من اعتلائه العرش أصبحت آشور قوة عالمية يحسب حسابها، وهؤلاء الحكام الأربعة وبصورة خاصة الثالث منهم رووا منجزاتهم بالتفصيل، ولا يتسع هذا المقام لسرد أكثر من خلاصة موجزة لأعمالهم الرئيسية أثناء حكمهم.

ولقد قام ابن آشور دان وهو حدد نيراري الثاني (٩١١ - ٨٩١) بحملة لإعادة وتوكيد السيطرة الآشورية في المنطقة الشمالية الغربية، فقد زحف نحو الجبال الشمالية فيما وراء (طور عابدين) ومع أنه قد اتخذت إجراءات عسكرية عنيفة ضد المعارضين، إلا أن إجراءاته لم تكن تأديبية وضاربة على شكل طائش، فإن غرضه كان إنشاء أحوال مستقرة بحيث يحصل على الاستفادة التامة المنتجة من الموارد التي تسبب أكثر الفوائد بالنسبة لآشور.

وهو يقول عند تسجيل نتيجة حملته ضد شعوب الشمال في (كوماني): لقد أسكتت بقية عساكرهم الذين هربوا أمام أسلحتي الحربية ولكنهم رجعوا، لقد أسكنتهم في مساكن آمنة.

ظل الآراميون المشكلة المزمّنة، ففي أسفل طور عابدين استقر بعضهم بشكل واسع فيما بين الخابور والقوس الغربي لنهر الفرات، وبصورة خاصة منطقة منابع الخابور حيث حاولت مجموعة متحدة من الآراميين الذين وصلوا بعد مضي حكم تغلات بلاسر الأول، وحاول هؤلاء تأكيد استقلالهم ولقد احتاج حدد نيراري حوالي ست حملات سنوية لإخضاعهم، وأخيراً نجح في ذلك بعد تجويع الحاكم الأعلى في عاصمته المحصنة نصيبين.

وبعد أن زحف بمحاذاة الخابور استطاع الحصول على الخضوع النهائي الرسمي للسلطة الكاملة للمدن التي كان يسيطر عليها الآراميون، وفي أثناء ذلك استلم حدد نيراري الهدايا التي تعبر عن كامل خضوعه كتابع من قبل حاكم آرامي من منطقة بعيدة آرامية، وهي منطقة بيت عابدين وهي واقعة على منطقة تقوس الفرات.

وفي المنطقة الجنوبية الغربية عمدت بابل وفي أثناء فترة ضعف آشور إلى الاستيلاء على أراضي واقعة إلى الجنوب من الزاب الأدنى، ولهذا بدأ حدد نيراري بالعمل، ولكن ومع أنه أعطى لنفسه لقب فاتح بلاد كاردونياش بأجمعها، إلا أن نشاطاته هناك لم تكن أكثر من مناوشة حدودية لدفع الحدود الآشورية جنوباً حتى نهر (ضهايم) أو ديبالا ولقد ختمت اتفاقية الحدود بتحالف مصاهرة وزواج.

واستمر توكولتي - نينوترا في العمل لاستعادة سيطرته على المناطق الجبلية الشمالية والشرقية وفي الجنوب دفع الحدود مع بابل حتى موقع مكان بغداد الآن، وهكذا اكتفت المستوطنات الآرامية بتقديم الجزية علامة على قبولهم التبعية الآشورية، إلى جانب تمردات عرضية كانت تتطلب بعض الأعمال العسكرية، وكانت إحدى القبائل الآرامية المزعجة في ذلك الزمن وهي قبيلة (ايتوى) وكانت تمتلك بعض الصفات القتالية قد حصلت على احترام الآشوريين، وفيما بعد (عندما أصبحت قضية ولأنهم مؤمنة) شكّلوا ما يدعى بالفصائل الصدامية التي تعمل على تطويع الشعوب المزعجة المتمردة.

وإن نوع الجزية التي كان بعض الآراميين يدفعونها تشير إلى ثروتهم وطبيعة نشاطاتهم التجارية، فضلاً عن الذهب والفضة كانت مثل هذه الجزية تحتوي على البرونز والقصدير والمُر^(١) وهذا ما يظهر وجود علاقات تجارية مع بلاد العرب (التي كانت تعتبر المصدر الأقرب للمر) وكذلك يذكر الجمل ذو السنام الواحد (مما يشير أيضاً إلى العلاقات مع الصحراء العربية) وكذلك العاج والمفروشات

(١) :

المرصعة بالعاج (من كليكيا) والمواشي والأغنام والحمير والبط والحبوب، ولكن لم يكن هناك أي ذكر للخيول التي كانت ضمن الجزية الأرمنية، إذاً من المحتمل أنهم كانوا يستعملون الحمير والجمال وسائل للنقل في ذلك العهد، هذا وقد استلم (توكولتي نينوترا) الخيول بالألوف بشكل جزية من المناطق الشمالية وبذلك بدأ استخدام الفرسان على مقياس واسع في الجيش الآشوري.

يبدأ حكم آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) وبه نصل إلى إحدى نقاط الذروة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت سجلاته متعددة، الأمر الذي يعكس منجزاته كمؤسس فعلي للإمبراطورية الآشورية الجديدة.

لقد بدأ آشور ناصر بعل في إظهار قواه إزاء ذلك القوس من الجبال الممتد من شرق أربيل حتى شمال غرب نينوى أي: شمال كردستان، وقد وصل إلى كادموخ وهو السهل الواقع إلى الغرب من نهر دجلة، وإلى شمال غرب نينوى وذلك عندما واجهته الاضطرابات في مكان آخر، فقد كانت الدولة الخاضعة اسمياً لآشور وهي (بيت عابدين) الواقعة على منعطف نهر الفرات نحو كركميش، تحاول تأكيد استقلالها وكسب الدعم الأوسع، فقد أحرزت نجاحاً دبلوماسياً، والحقيقة أن المدينة الرئيسية في تلك المنطقة حيث يلتقي الخابور بالفرات، قد قامت بقتل حاكمها الموالي لآشور وكان هذا رجلاً يظهر من اسمه أنه لم يكن من أصل آشوري (لم يكن الآشوريون عنصرين).

ولقد وُكِّت هذه المدينة أحد أبناء بيت عابدين ملكاً عليها، هذا وقد كان رد آشور ناصر بعل على هذا الوضع فوراً، فزحف بجيشه جنوباً حتى أسفل نهر الخابور، وقد استلم في طريقه خضوع المدن الموالية الواقعة على ضفاف النهر، ثم

استولى على معقل المتمردين وسحق كل معارضة بقوة ونشاط وأعاد المدينة مرة أخرى تحت الحكم الآشوري.

ولقد ثبت أن ثروة المدينة المتمردة كانت ثروة لا بأس بها مما جعل آشور ناصر بعل يلاحظ أن الغنائم الضخمة والوافرة كانت كالنجوم في السماء لا يمكن عدّها، فقد كانت تشمل بالإضافة إلى أصناف الجزية المذكورة آنفاً: العربات الحربية والخيول، وكانت هذه أول مرة يشار بها إلى الخيول في المناطق الخاضعة للآراميين، إذ من الواضح أن الجماعات الآرامية في منطقة ما بين النهرين لم يعودوا بدوّاً رحلاً شبه مستقرين ويشتغلون بالتجارة، بل قد وصلوا إلى طريق إنشاء ممالك متطورة مستقرة ذات ذراع عسكري منظم يتطلبه ذلك الوضع.

تعتبر كادموخ التي وصلها آشور ناصر بعل عندما اتجه إلى منطقة الخابور المفتاح الموصل إلى هضبة طور عابدين كاشياري والمناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة، وهنا بدأ الملك يوجه اهتمامه لتلك المنطقة، فقد ادعى عدد من الملوك الآشوريين الأقدمين أنهم قد استولوا على (كاشياري) ولكن التضاريس الأرضية في تلك المنطقة جعل منها منطقة صعبة المنال، ولم تكن سيطرة الآشوريين هناك إلا سيطرة مؤقتة.

وعندما تمرد أحد الحكام المواليين وهاجم الموقع العسكري الآشوري، بدأ آشور ناصر بعل عملياته مباشرة وتحرك ضد المذنب ولم يتورع عن القتل والنهب والحرق وسمل العيون والتمثيل بالضحايا، وكان أن أعلنت الممالك الصغيرة في المنطقة ولاءها وخضوعها فوراً.

وبعد إظهار جبروته ضد المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة المعروفة باسم (نياري) قام آشور ناصر بعل بترميم مدينة قديمة واقعة على نهر دجلة (توشتمان) لتكون حامية عسكرية ضد كاشياري ونياري في وقت واحد، ولكن لم تكن هذه المدينة مجرد حامية عسكرية بل كانت قاعدة رئيسية ومستودعاً للتخزين، وكان سكانها من الآشوريين الذين يحصلون على الحبوب والمؤن

الأخرى من المناطق المجاورة وبحيث تستطيع في حالة تعرضها للهجوم الصمود مدة غير محدودة.

وهكذا فقد أنشأ آشور ناصر بعل خطأ دفاعياً قوياً على طول حدوده الشمالية والغربية، وبعدها عمل على تحسين هذا الخط بجعله حلقة أمنية آمنة، أما في الشرق فقد زحف إلى جنوب كردستان وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من كركوك، وقد استطاع بعض الملوك الآشوريين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الاحتفاظ مؤقتاً بهذه المنطقة التي لم تكن تحت حكم آشوري حازم وكامل مدة نحو ألف عام، ولكن تمثل عمليات آشور ناصر بعل بداية العمل ضد أحد المتمردين، ولكن ذكره بعد ذلك لأماكن لم يرها أي إنسان في حياته والتي لم يصل إليها أي ملك من أسلافه.

كل هذه التصريحات توضح أن هذه العمليات لم تكن سوى توسع عسكري سافر، فقد كانت بعض الشعوب التي واجهها غربية عن الآشوريين، فقد قيل إن بعضهم كانوا يصفون شعورهم كالنساء (أو يزينون أنفسهم) ولقد زادت عمليات إخضاع هذه المنطقة وسلسلة الدفاع الآشورية على طول زاغروس ابتداءً من منابع نهر دياللا (وهي منطقة الحدود مع بابل) حتى منابع نهر الزاب الأدنى.

ولقد استخدم آشور ناصر بعل في غزواته أربيل ونيوى قواعد لعملياته الحربية، مع أن عاصمة آشور كانت واقعة في أقصى الجنوب، وأصبحت الإمبراطورية بحاجة إلى إنشاء عاصمة شمالية، فقد أدرك آشور ناصر بعل قيمة المدن من نوع (توشتمان) (وهي واحدة من عدة مدن مثالها) في كونها حاميات عسكرية وقواعد تخزين ومراكز إدارية، حيث من الممكن للملك اتخاذها نقاط انطلاق دون وجود تلك العوائق التي تساعد على التورط بالمشكلات التي تسببها وجود المراكز الدينية أو المدن التجارية، ولذلك فقد بنى الملك مدينة تجارية وهي (كالخ) (التي يُمثّلها الآن تلة نمرود) في موقع المدينة القديمة التي كان قد أسسها شلمناصر الأول بالتّي، وقد تحولت إلى خرائب، وقد كان لهذا الموقع أهمية استراتيجية ليس لكونه واقعاً إلى الشمال بل لكونه واقعاً في الزاوية التي يتصل

بها نهر الزاب الأعلى بنهر دجلة، ولقد زوّد الملك عاصمته الجديدة بالمياه عن طريق قناة مدّت من الزاب الأعلى، وبنى فيها أبنية رائعة مع أنظمة للصرف الصحي وزرع فيها الحدائق، وأسكن فيها شعوباً من مختلف أرجاء الإمبراطورية وجعلها مدينة عالمية حقاً، وأخيراً دشنها بإقامة وليمة دامت أسبوعاً كاملاً وقد سجّل هذا العمل في نقشٍ كامل ذكر فيه حتى قائمة المأكولات.

وهنا نعود إلى استراتيجية آشور ناصر بعل العسكرية فقد كان عليه القيام بإجراءات لاحقة في الغرب، وبعد أن زحف آشور ناصر بعل إلى الغرب عبر نهر دجلة ابتداءً من (كالخ) حتى وصل إلى الخابور، ثم اتجه جنوباً أخيراً مستلماً الجزية حتى وصل الفرات، وهناك زحف بمحاذاة النهر حتى حدود بابل، وقد استولى على إحدى البلدات الحدودية البابلية، وهذا يمثل ما ندعوه اليوم ممراً للوصول إلى شفير الهاوية فلم ينتج عن ذلك نشوب حرب ضد بابل بل تطور إلى نتائج دعائية كان آشور ناصر بعل يعرفها تماماً، وهنا يخبرنا:

«لقد وصلت حالات الخوف من سلطتي حتى أرض (كاردونياش) (بابل) ولقد عمّ الفزع من جيشي وأسلحتي بلاد الكلدانيين (جنوب بابل)».

وبعد أن قضى على محاولة عصيان مسلح في المنطقة الحدودية بسرعة، ولم يعد أمام آشور ناصر بعل أي شيء يخشاه في تلك المنطقة فقد تم له تحييد كل معارضة بابلية محتملة.

بعد اكتمال الحلقة الأمنية المؤلفة من بلاد بابل وزاغروس وطوروس الشرقية (وطور عابدين) والخابور هذا السور الذي كان يحيط بأشور، فقد تقدم آشور ناصر بعل الآن لتنفيذ المرحلة الثانية من استراتيجيته.

والحقيقة أنه لم يحدث أن استطاع أي حاكم آشوري أن يسيطر على الطرق المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام تغلات - بلاسر الأول قبل نحو قرنين ولهذا فقد عمد (آشور ناصر بعل) إلى الاندفاع ابتداءً من أعالي الفرات من زاوية

الخابور كاسحاً كل مقاومة في طريقه، مع قيامه بصيد النعام والثيران البرية في طريقه، وهذه كانت ما تزال منتشرة في الصحراء السورية في ذلك الزمن، وقد انتهت هذه العمليات بالقيام ببعض الحملات ضد الدولة الآرامية في (بيت عابدين) على قوس الفرات، وتطلبت عملية تهدئة تلك المنطقة بشكل فعال القيام ببضع حملات وتأسيس مدينتين جديدتين وهما (مرفاً آشور ناصر بعل) و(معبد آشور) وذلك للتحكم بمعاابد الفرات فأصبحت بيت عابدين رسمياً ولاية آشورية أثناء أوائل حكم خليفته.

بعد أن أمن مؤخرته، أصبح آشور ناصر بعل مستعداً للاندفاع نحو البحر الأبيض المتوسط بعد أن عبر الفرات عن طريق الأطواف في منطقة كيريمين، ولقد أمنت له عملية سحق المعارضة خضوع جميع ملوك شمال سورية الذين تقاطروا لتقديم الولاء، وكعلامة من علامات الضمان فقد أخذ بعض الرهائن (ربما من أبناء الملوك) وحفظ هؤلاء الأبناء معه خوفاً من حالات الغدر في طريقه عبر نهر العاصي إلى جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، حيث استلم الجزية من المناطق الواقعة جنوباً حتى مدينة صور.

لقد أصبح آشور ناصر بعل الآن مُسيطرًا سيطرة تامة على جميع المنطقة ابتداءً من جنوب لبنان حتى جنوب كردستان، مع سلطة غير ثابتة على اتساع لا بأس به من منطقة طوروس، ولقد توجهت حملات تالية تهدف إلى توطيد سلطة أكثر من كسب أراضٍ جديدة وذلك باستثناء استيلائه على مدينة (أمد) (ديار بكر) التي كانت وما تزال المفتاح المؤدي إلى منطقة واسعة ابتداءً من سفوح الجبال في طوروس الشرقية.

لقد تابع ابن آشور ناصر بعل وخليفته وهو شلمناصر الثالث (٥٥٨ - ٥٢٤) سياسة والده ومددها مع أنه قد عمد إلى بعض التطويرات والتحسينات الجديدة، ولكن تواريخه ليست موثوقة ولذلك فسوف نناقش المعطيات بشكل جغرافي.

أولاً في الغرب: لقد تابع شلمناصر الثالث خطة والده في تأمين سيطرته على المنطقة الفينيقية الساحلية، ونرى على الأبواب البرونزية التي أقامها صورة جلب جزية صور عن طريق القوارب، ولكنه عندما حاول التقدم إلى مناطق في أقصى الجنوب من داخل سورية صادف مقاومة في قرقر (عام ٨٥٣) من قبل تحالف مؤلف من الملوك السوريين والفلسطينيين بما فيهم (حداد ايزير) الدمشقي وآهاب الإسرائيلي، وكلاهما مذكوران في التوراة، ولقد جلب آهاب قوة من الفرسان، وهنا وفجأة يدخل عالم التاريخ في النصوص التوراتية ولذا:

«وداعاً أيها العقل المسالم الهادئ!».

«ووداعاً أيها الفكر المطمئن!».

إذ إن نزعة الموالة والمحابة التوراتية الدينية ترفع رأسها المتوحش، وفي الحالة الحاضرة وبالنسبة للملك الإسرائيلي صاحب العلاقة فهناك ميل أن تطرق السياسة الاستراتيجية الآشورية بسيل من الأسئلة المحرجة التي تتساءل هل ملك آشور أم إسرائيل هو الذي كسب المعركة؟ وأن الشاهد الوحيد المباشر الذي نمتلكه حول المواجهة هو حسب تسجيلات شلمناصر نفسه فهو يدعي أنه قد قهر الائتلاف، ولكن وحتى لو كان شلمناصر منافياً في أقواله وإدعاءاته النجاح وأن معركة قرقر قد سببت نكسة (وذلك كما يعتقد بعض الباحثين) للاستراتيجية الآشورية بما يخص سورية وفلسطين، فإن ذلك لم يكن سوى أمر مؤقت، إذ إنه وبعد اثني عشر عاماً قامت الإمبراطورية الآشورية بالسيطرة على فلسطين وأصبح خليفة آهاب الإسرائيلي المغتصب وهو جيحو تابعاً مالياً لآشور، ونراه وهو ينحني بإجلال واحترام أمام شلمناصر وذلك على نصب تذكاري آشوري.

ومن وجهة استراتيجية فإن أهم منجزات شلمناصر كانت توسيع السيطرة الآشورية باتجاه الشمال الغربي فيما وراء أمانوس حتى كليكيا وتجاه أواسط

الأناضول، وكانت أهمية هذا الحدث هي أن كليزيا كانت المصدر الرئيسي للحديد بالنسبة للشرق الأدنى، وكانت مهتمة أيضاً بالتجارة البحرية مع قبرص وبلاد اليونان بحيث نرى أن الروابط الآشورية الاقتصادية المهمة قد توسعت وتضخمت، وفي الجنوب كان على شلمناصر القيام بغزوة صغيرة لبابل وذلك بقصد تأمين استمرار الوضع على الحدود، ولكن المشكلة التي واجهها كانت جنوب بابل حيث كانت القبائل الكلدانية قد استقرت، وهذه دلالة على ما يحدث في المستقبل.

أما في الشمال الشرقي فقد كان هناك تطورات أخرى ذات قيمة استراتيجية على المدى الطويل، فقد تألفت شعوب طوروس الشرقية وشكلت ما سوف يصبح مملكة قوية وهي مملكة (أورارتو) على بحيرة (فان) ولقد برهنت هذه المملكة ولمدة تزيد عن قرن أنها منافس قوي لآشور، فقد توسعت غرباً عبر الأناضول حتى سورية الشمالية، وتنافست مع آشور بالنسبة للسيطرة على الطرق التجارية والمناطق الرئيسية لإنتاج المعادن وتربية الخيول، وهكذا أصبحت حملات الآشوريين التي كانت موجهة ضد بعض الإمارات الصغيرة في منطقة (نياري) (وصبغا) أصبحت هذه الحملات تلاقى وتواجه من قبل معارضة قوية من دولة أورارتو وجيشها الذي كان مستعداً إلى سلاسل من القلاع.

..

ظهرت عناصر جديدة في أقصى الشرق، فقد عبر شلمناصر زاغروس من حيث كان آشور ناصر بعل قد خيم في منطقة جنوب كردستان، وقد حدثت أول مواجهة له مع الميديين والفرس على الجانب الشرقي، ولقد كانت هذه الشعوب المتحدة من القبائل الإيرانية قد هاجرت إلى إيران من الشمال في حوالي نهاية الألف الثاني، وكان الفرس الذين استقروا فيما بعد في جنوب غرب إيران لا يزالون في الشمال الغربي.

أما الميديون الذين سوف يقيمون عاصمتهم في اكباتانا (هوارث الحالية) وسوف يثبتون أنفسهم كتلاميذ ناجحين في فن الحرب الآشوري بحيث إنهم سوف يقومون بعملية حصار ناجحة للمدن الآشورية العظيمة، هؤلاء الميديون كانوا في زمن شلمناصر عبارة عن مجرد شعب عميل من البدو الرُّحل الذين يُشار إليهم باسم الميديين الواسعي الانتشار، وذوي الفائدة لآشور، والذين يتوسطون الطريق التي كانت تجلب اللازورد إلى منطقة ما بين النهرين من أفغانستان.

لقد دام حكم شلمناصر الثالث ووالده معاً مدة ستين عاماً، كانت تتسم بسياسة رشيدة واحدة يمارسها حاكمان يملكان عقليين راجحين.

ولكن وعندما سنحت فرصة صغيرة للتعبير عن الرأي العام كان هذا الوضع سبباً لظهور السخط وعدم الرضا، ولا غرابة أنه على الرغم من استمرار التوسعات الإمبراطورية فقد كتب على نهاية حكم شلمناصر أن يوصم بحدوث الاضطرابات والتمردات، إذ إنه وفي الإمبراطورية نهاية عهد شلمناصر وقبل موته بعدة سنوات حدث هناك نزاع قوي يرأسه ولدان من أولاد شلمناصر، ويذكر الحلف الناجح لشلمناصر وهو شمسي أداد الخامس أن سبعاً وعشرين مدينة قد تمردت، وكان هذا التمرد يشمل المدن الآشورية الرئيسية وهي نينوى وأربيل وآشور وأرابخا.

وكانت مدينة (كالخا) هي الاستثناء الوحيد إذ إن من الواضح أن (كالخا) ظلت تحت سيطرة شلمناصر وشمسي أداد الخامس، فقد كان بُعد النظر الذي أبداه آشور ناصر بعل وشلمناصر عند تخطيط وتنظيم عاصمتها الجديدة (كالخ) قد أثبت الآن أن الحاكم الذي يحتفظ بهذه المدينة سوف يسيطر على الإمبراطورية بأكملها.

وبعد استعادة السلام في آشور كانت نشاطات شمسي أداد الخامس متركزة بالحدود الشمالية الشرقية وبيابل التي غزاها شمسي أداد وأزاح فيها عن العرش ملكين متعاقبين (٨١٣ - ٨١٢ ق.م) وليس لدينا أدلة قاطعة عن هذا التطور

الأخير، وهناك تطور آخر وهو أن شمسي أداد قد استلم مساعدة بابلية لتأمين مملكته (وقد استنتج هذا من الرخم الفخارية التي تشير إلى المعاهدة المعقودة بينه وبين الملك البابلي).

وإن المحاولات التالية من قِبَل بابل للاستمرار وإذلال آشور بالتدخل في شؤونها قد أدت لقيام شمسي أداد بإجراء أعمال مضادة عنيفة، وإن الخراب الذي أحدثته شمسي أداد في مدن شمال بابل قد سبب تمرُّقاً ساعد على تصاعد ونمو النفوذ الكلداني.

يقدم لنا شمسي أداد حلقة تؤدي إلى أسطورة كلاسيكية، إذ إن زوجته وتدعى (شمورامات) وهي التي ذكرت في الأساطير اليونانية ابتداءً من هيرودوتس فصاعداً، ووجدت في الأساطير وحكايات العصور الوسطى باسم سميراميس، ولقد ذكر ديودوروس المؤرخ الصقلي الذي كتب عن تاريخ اليونان في القرن الأول ق.م بأنه خصص عدة صفحات من القصص الخيالية حول هذه السيدة، التي كانت تجسداً للمرأة الخارقة الفائقة الجمال، المحبة للنصح وذات المقدرة العسكرية والقوة الجنسية والمهارة الإدارية والطموح، وقد أدت هذه الصفة الأخيرة بها عندما أصبحت أرملة الملك أن تبني بابل وعدة مدن أخرى في منطقة ما بين النهرين وما وراءها.

بينما تقول الأساطير الأرمنية: إنها قد بنت مدينة عظيمة تُطل على بحيرة (فان) شرقي تركيا، والحقيقة أن هذه العاصمة قد بناها ملك أورارتو المعاصر لهذه الملكة.

إن ذرة من الحقيقة وراء كل هذه المعلومات تشير أن سميراميس كانت امرأة متسلطة، وأنها كانت امرأة بارزة مرموقة في عهد ابنها حدد نيراري الثالث (٨٠٩ – ٧٨٢) ويتصورها بعض الباحثين كوصية على العرش، مع أنه ليس لدينا أي دليل مقنع على هذا سواء كانت وصية على العرش أم لم تكن، ولكن عظمتها

الاستثنائية قد شهد عليها وجود نصب تذكاري حجري، فقد وجد بين اللقيات في العاصمة الآشورية القديمة صفان من الأعمدة الحجرية منقوش عليها تذكارات أشخاص مختلفين، وفي الصف الأول ذكرت أسماء موظفين كبار، بينما في الصف الثاني كُتبت أسماء ملوك ما عدا ثلاثة أسماء، ومن الاستثناءات الثلاثة كان واحد باسم الملكة (سيدة القصر آشور بانيبال) وواحد باسم سيدة (من المحتمل أن تكون سيدة من سيدات القصر مع أن الاسم واللقب مفقودان) سنحاريب، والثالث باسم سميراميس، ويقول النص:

مسلة شمورامات

ملكة (حرفياً سيدة قصر) شمسي أداد

ملك الجميع - ملك آشور

كنة شلمناصر

ملك الأقطار الأربعة

وإن وجود مسلة شمورامات (سميراميس) في الصف المخصص للملوك وأنها هي لوحدها من السيدات الثلاث الموجودة هناك كانت توصف بأنها أم ملك، هذا يوحي أنها كانت تتمتع بوضع خاص في أثناء حكم (حدد نيراري) ويمكننا أيضاً أن نلاحظ أن حاكم (كالخ) عندما كرس تمثالين إلهيين أضاف نقشاً تكريماً يربط بين عبارة:

«تكريماً لحياة حدد نيراري ملك أراضي آشور سيده» أضاف عبارة «تكريماً لحياة شيمورامات سيدة القصر - سيدته» وهذا يشير مرة ثانية إلى الوضع الاستثنائي لشيمورامات.

-

كان لدى حدد نيراري الثالث مشكلات أخرى أكثر من وجود أم متسلطة، ولكي نفهم ما كان يجري في الإمبراطورية الآشورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م علينا أن ننظر لما كان يحدث في الشمال، فيما يدعى الآن تركيا

الشرقية (سابقاً أرمينيا) كان هناك مملكة أورارتو التي كان يحدها ثلاث بحيرات وهي بحيرة (فان) وبحيرة (أورميا) وهي (ريراية) في أذربيجان (شمال غرب إيران) وبحيرة سيفان في أرمينيا السوفيتية (سابقاً) (جنوب روسيا) ولقد تطورت هذه المملكة في القرن التاسع من اتحاد شعوب موجودة في داخل وفيما وراء طوروس، وغزاها الآشوريون خلال عدة قرون، ومع أن هناك نقشاً من اسم أورارتو موجوداً ضمن النقوش الآشورية يرجع إلى القرن الثالث عشر، إلا أنه يشك أنه كان لا يعني أكثر من جزء هامشي صغير لما أصبح يدعى فيما بعد مملكة أراتو.

وعلى كل حال كانت أورارتو المنافس الرئيسي لآشور، هي من صنع الدولة الآشورية نفسها، فإن الغزوات الآشورية الدائمة لجبال طوروس وما وراءها والقبض على أمرائها وأخذهم كأسرى وكرهائن، وتشغيل أهلها بالسخرة، والشباب لخدمة الجيش الآشوري، ووجود مسؤولي الإدارة الآشورية وكتبهم لمراقبة وتسجيل حمولات الخشب والمعادن والخيول القادمة إلى آشور، كل هذه عرفت شعب أورارتو على قسم كبير من ثقافة وبنية آشور التحتية، وإن هذا الرابط قد انعكس في أن أول النقوش الأورارتية الباقية كانت مكتوبة باللغة الآشورية، ومعظمها مكتوبة بالخط المسماري المبني على اللغة الآشورية.

يمكننا أن نرجع البداية الحقيقية لأورارتو كمملكة مرموقة إلى زمن شلمنصر الثالث، فلم يصف شلمنصر غزواته لأورارتو فحسب بل لقد صورها في لوحات مجسمة من البرونز كسى بها بوابات إحدى المدن التي بناها قريبة من كالاخ، فنحن نرى خلال تلك الصور قدوم جنود المشاة من الأورارتيين فوق الجبال المنحدرة، ونرى المسؤولين الآشوريين من الخيالة والرماة الآشوريين أثناء العمل، ونرى حادثة إحراق (ارزاشكن) أول عاصمة لأورارتو، ولم تكن أرزاشكن في منطقة بحيرة (فان) ولكن على بعد منها إلى الغرب أو الشمال الغربي، ولقد بنى ملك أورارتو (ساردوري) عاصمة جديدة له تدعى (تورشيا) وذلك طلباً للأمان من

خطر الحملات الآشورية، وكانت هذه العاصمة الجديدة في موقع عالٍ يسهل الدفاع عن كل الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحيرة فان.

لقد قدمت الاضطرابات الداخلية التي حدثت في أثناء حكم شلمنصر الثالث فرصة لأورارتو للتوسع، فقد عبر الآشوريون تحت قيادة شلمنصر جبال زاغروس واتجهوا إلى إيران، وربما كان ذلك بحثاً عن الخيول، وقد قابلوا إلى الجنوب من بحيرة أوروميا شعباً يدعى (ألماني) فضلاً عن الإيرانيين (الذين لم يتخذوا مكان إقامتهم النهائية بعد في الجنوب) وقابل شعب ميديا أيضاً.

وهنا تتوسع (أورارتو) جنوباً الآن إلى داخل الأراضي الجبلية الواقعة بين (توروشيا) وآشور، وشرقاً وجنوب شرقاً إلى داخل بلاد أذربيجان الخصبة حتى بحيرة أوروميا، وعندما حاولت أورارتو مواصلة التوسع جنوباً من بحيرة أوروميا بدأت المنافسات للاستيلاء على أرض مانيا، الأمر الذي لم يتقرر إلا بعد أن استولت آشور على جميع بلاد أذربيجان عام ٧١٤ ق.م، غير أن الاضطرابات الآشورية الداخلية زمن شلمنصر الثالث قد أخضعت سيطرة آشور على المنطقة الشمالية الغربية وبذلك مكنت أورارتو من التوسع حتى الفرات الأعلى، وكانت هذه منطقة ذات أهمية قصوى بالنسبة لآشور نظراً لأن النهر كان هو الطريق الطبيعية الموصلة إلى بلاد الأناضول من سورية ومنطقة ما بين النهرين.

وعندما هجمت أورارتو على إحدى المحميات الآشورية المهمة هناك وهي دولة (ميليد) دبّ القلق بين أتباع آشور الآخرين من الداخلين في فلك آشور في شمال وجنوب سورية، وقد انعكس هذا في الامتناع عن تقديم الجزية في زمن حكم الملك شمسي أداد الخامس.

كانت أهمية سورية الاقتصادية بالنسبة لآشور متعددة الجوانب، فقد كانت سورية مصدراً للقوة العاملة الماهرة، كما أنها قدمت الخشب من جبال أمانوس ولبنان، وكانت تشرف على الطرق الآشورية إلى البحر الأبيض المتوسط، وكانت سورية هي خط التزويد الأساسي بالمعادن والخيول من الأناضول وآسيا الصغرى، هذا وقد وصل (حدد نيراري) الثالث إلى حل بالنسبة لهذا المشكل

الاستراتيجي وذلك بالقيام بحملات في جنوب سورية التي كانت أسهل منالاً من سورية الشمالية بسبب التضاريس الطبيعية، ولكن الحقيقة أن ذلك كان بسبب أن هذه الحملات لا تشمل أورارتو مباشرة.

وقد بدأ الحملة بالهجوم على (أرياد) إلى الشمال الغربي من حلب، ولكنه ركز فيما بعد على استعادة سيطرته على سورية الجنوبية، واستلام الجزية من المناطق حتى جنوبي صور وصيدا وإسرائيل (وقد ذكر اسم ملكها بالتحديد وهو يوشع) وكان هدفه الرئيسي من غزو جنوب سورية الاستيلاء على مدينة دمشق الغنية التي ادعى حدد نيراري أنه استلم نحو ثلاثين طنناً من النحاس أو البرونز، وضعف تلك الكمية من الحديد، وأما من لبنان فقد حمل نحو مئة شجرة أرز من التي احتاجها لأجل بناء قصوره ومعابده.

لقد ألمحنا إلى الدور الذي لعبته سورية كمصدر من مصادر الحصول على القوى البشرية، ولقد أدرك حدد نيراري الحاجة لتطوير أراضيه، وفي إحدى النصوص يضيف إلى قصة غزوته لجنوب سورية بعض التفاصيل حول مشروع إعادة الاستيطان في منطقة الخابور العليا الخصبة، ومن المعقول أن نستتج أن الشعب الذي وصل إلى هذه المستوطنات الجديدة قد أتى من جنوب سورية.

وجواباً على تهديدات آشور لسورية حاول ملك دمشق تنظيم اتحاد يضم جميع الدول ابتداءً من (ميليد) وكليكيما حتى دمشق مع أنه وجدت بعض الجزر التي كانت تدين بالولاء لآشور مثل حماة التي بقيت كذلك.

وقد كان الوضع النهائي أن وجدت دولة قوية وهي دولة (أورارتو) التي كانت مسيطرة على المنطقة بأجمعها غرباً ابتداءً من جنوب بحيرة (أورومييا) حتى (ميليد) مع بعض الدول ابتداءً من ميليد جنوباً حتى كركميش التي كانت تخضع للنفوذ الأورارتي كلياً، وإلى أقاصي الجنوب حيث كان هناك اتحاد متضامن نسبياً تحت قيادة دمشق التي كانت غير موالية لآشور، كل هذه الأمور أثرت تأثيراً سلبياً على تزويد آشور بالأشياء الضرورية مثل الخيول والمعادن والأخشاب فضلاً عن الكماليات مثل اللازورد من أفغانستان، والذي كان يصل

إلى آشور عن طريق يسير خلال شمال إيران، ومثل التوابل من جنوب بلاد العرب والتي كانت تصل إلى آشور من خلال فلسطين وسورية.

ولو كانت آشور تحت حكم رجل استراتيجي قادر لاستطاعت حل هذه المشكلات، وبوجود سهولها الغنية بنبات الذرة الممتدة على طول نهر دجلة العظيم، ووجود طرق المواصلات السهلة عبر المنطقة بأكملها، فقد كانت آشور ذات موقع جغرافي يؤهلها لتكون دولة محاربة أكثر من حالة أورارتو الجبلية التي كان من الصعب صوغها بشكل دولة موحدة، بينما كانت التضاريس الطبيعية لأورارتو تجعل من المستحيل هزيمة هذه الدولة ككل، ولكن عملت بعض الظروف على التأكيد أن باستطاعة آشور السيطرة على تلك المناطق الخاضعة لنفوذ (أورارتو) والتي كانت ذات أهمية استراتيجية لآشور، ولكن وفي ذلك الوقت بالذات لم تكن الظروف مناسبة في آشور، وكذلك فقد كان المشكل في سورية ليس مُستعصياً على الحل.

أما محاولات دمشق لإنشاء تحالف سوري شامل فقد كانت ناجحة إلى حد ما وبشكل مؤقت، هذا وقد ذكرت قضية مقاومة حماة، وتوضيح التوراة أن بريكام الثاني ملك إسرائيل لم يكن يرحب بالاتحاد الذي اقترحته دمشق، ولكنه استفاد من انهماك دمشق في تلك الشؤون فاصبح حليفاً لآشور عندما قامت بحملة ضد دمشق عام ٧٧٣، وكانت آشور تفضل وجود إسرائيل قوية ولكن لا تؤلف تهديداً لآشور في منطقة الفرات السورية، على تحالف الدول الآرامية بقيادة دمشق والذي كان يهدد مصالح آشور حقاً.

ومع ذلك ولمدة حكم ثلاثة ملوك ومضي نحو أربعين عاماً بعد حدد نيراري الثالث لم تُظهر آشور أي مبادرة ظاهرة، ولا يعني هذا أن آشور قد لانت فجأة، إذ إن قوائم التواريخ السنوية تذكر حدوث حملات ستة ضد مملكة أورارتو في مدة ثماني سنوات، وأربع حملات ضد سورية فيما بين عام ٧٧٢ وعام ٧٥٤، ولكن

تدل المؤشرات أن هذه الحملات كانت إما حملات دفاعية قام بها الحكام المحليون أو غارات محدودة أو مصادمات حدودية، إلا أنه لم تكن هناك محاولات كبيرة للتوسع الآشوري، وقد كان أحد عوامل هذه الظاهرة هو الوضع الداخلي، حيث حدث تغير في السلطة وانتقال تلك السلطة من الحكومة المركزية إلى الولاة المحليين، وهذا كان تطوراً تدريجياً بدأ بالحدوث منذ زمن شلمنصر الثالث.

هذا، وإن تأكيد ذلك الملك ووالده على وجود سيطرة آشورية حازمة على مناطق مثل منطقة الفرات الوسطى والعليا، ومناطق شمال طور عابدين كل ذلك كان يقتضي وجود إدارة محلية ذات سلطات بالغة القوة لحماية أمن تلك المناطق الحدودية النائية.

ولقد لاقت تلك الاستراتيجية لحماية آشور داخل حدود الفرات وشمال دجلة نجاحاً باهراً، فقد سمحت بالعمل السريع ضد أي قلاقل محلية، واستطاع الحكام في جواد قوى (أورارتو) التحرك بسرعة ضد أي حركات مهددة، ولكن يظهر أنه كان هناك وجه آخر لهذا التطور، فالحكام في هذا الوضع كانوا قادرين في غياب ملك قوي قادر على اكتساب مقياس واسع من الاستقلال، وأن تصبح هناك أسر محلية حاكمة، ولقد أظهرت هذا الأمر بعض النقوش التي كانت تخص ثلاثة حكام مختلفين من هذه الفترة كانت تسجل مفاخرهم التي تشمل بعض أوجه النجاح العسكري وتأسيس بعض المدن، وكانت هذه الشؤون منحصرة بالنقوش الملكية.

وفي إحدى الحالات نجد أحد الحكام الذي كان يحكم منطقة بمحاذاة الفرات الأوسط، كان هذا الحاكم يؤرخ أعماله بعدد سنوات حكمه ووجوده في السلطة دون ذكر وجود أي ملك، وهذا يدل أنه كان حاكماً مُستقلاً فعلاً، ومن الممكن أن نضيف أن هذا الحاكم فعل الكثير لخير الإنسانية أكثر من عديد من الملوك، فقد قدم تربية النحل لشعبه، والتي كانت انجازاً يفخر به وهو يكتب هنا مايلي:

أنا شاماش - ديش - يويسور حاكم سوهو وماري (على الفرات الأوسط) أقول: إن النحل الذي يجمع العسل الذي لم يره أحد من أجدادي ولم يجلبه إلى هذه البلاد، لقد جلبته من جبال حبا (تركيا الشرقية) وبدأت استثماره في بلدة جباري ابني (وهي إحدى المدن التي أسسها) وإن أهالي تلك البلدة يجمعون العسل والشمع، وإنني أفهم كيف يذيبون العسل والشمع ويفهمها أصحاب البساتين أيضاً ويمكنكم سؤال أي شخص في المستقبل من الشيوخ القدماء في البلاد فيما إذا كان صحيحاً أن شاماش - ريشن - يوشور حاكم سوهو هو الذي قدم النحل إلى هذه البلاد.

إنه لأمر مهم أن يقول شاماش - ريشن - يوشور: إنه حصل على النحل من الشمال، لأنه من المعلوم أن الحثيين كانوا يربون النحل في خلايا في الألف الثاني ق. م.

وبوجود حكومة مركزية ضعيفة مع وجود مشاكل اقتصادية ناتجة عن التدخلات في تأمين البضائع التي كانت آشور معتادة على الحصول عليها من سورية ومن الشمال، بوجود هذه المشكلات بدأت التوترات تشتد، وفي أثناء حكم آخر ملك في هذه الفترة وهو آشور نيراري (753 - 745) حصلت أورارتو على مكاسب سياسية وربما عسكرية في شمال سورية، وقد ادعى معاصره الأورارقي (ساردوري) الأول أنه قد استولى على أرض (آشور نيراري) ملك آشور، ولم يذكر أي تفاصيل سوى أنه ذكر اسم مكان يوحي بأنه من أراض آشورية قرب كركميش، ولم يكن آشور نيراري في مركز يسمح له أن يقوم بجواب عسكري.

وتسجل قائمة حوادث السنين الخمسة من السنين الثمانية التي حكمها بأنه لم تحدث أي حملة عسكرية، ويظهر أنه قد صمم على حماية مركز آشور في سورية الشمالية بشكل دبلوماسي، ولدينا نص من نصوص معاهدة مفادها إشراك دولة سورية شمالية لدعم آشور ضد أورارتو، وكانت لهذه المبادرة تأثيرات قليلة، وهكذا استمرت أورارتو بالتقدم في سورية الشمالية.

وفي النهاية: انفجرت التوترات خلال آشور عبر تمرد داخل العاصمة (كالخ) ونُصب حاكم كالخ ملكاً وكان مُغتصباً، ولكنه كان يحمل دماء ملكية، وكان اسمه (بول) كما هو مسجل في كل من التوراة وبعض النقوش المسمارية، ولكنه اتخذ اسم (تغللات بلاسر) لقباً ملكياً كما أنه كان دلالة على نوع السياسة التوسعية التي كان ينوي اتخاذها والسير بموجبها وذلك اقتفاءً لخطى صاحب الأول لهذا اللقب.